

## العثمانيون في البحر الاحمر

أ.د. عوض عبدالهادي العطا

متعاون بكلية الآداب جامعة إفريقيا العالمية

### أهمية البحر الأحمر:

يعتبر البحر الأحمر منطقة مهمة للدولة العثمانية ، وتعطيه أهمية خاصة باعتباره أهم طريق للملاحة إلى الهند والشرق الأقصى حينذاك، كما أنه الطريق المؤدي إلى الأماكن المقدسة في الحجاز ، مكة المكرمة والمدينة المنورة ، أنه الطريق الذي تهتم به بعض الدول الكبرى مثل إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وتفتح فيه الموانئ الإفريقية المهمة مثل عيذاب والقصير وسواكن ومصوع وزيلع، وتعتبر هذه الموانئ وخاصة عيذاب ثم سواكن معبرا مهماً للحجاج سواء من شمال إفريقيا أو من داخل إفريقيا والسودان.

وقد نافست كل من إنجلترا وفرنسا الدولة العثمانية في الاستيلاء على مناطق نفوذ لها عند مداخل البحر الأحمر ، فقد أدركت فرنسا هذه الأهمية وحاولت في عام 1798 م أن تحتل مصر لتسيطر على مدخل البحر الأحمر ، الذي يربط ما بينه وبين البحر الأبيض المتوسط ، ويقود في النهاية إلى منطقة الشرق الأقصى المهمة للدول الأوروبية وخاصة البرتغال في ذلك الوقت (1) وضاعف افتتاح قناة السويس للملاحة من أهمية البحر الأحمر فزادت حركة الملاحة زيادة بالغة ، ولكن المستعمرين سواء من الفرنسيين أو الإنجليز أو الإيطاليين ، كانوا يضعون نصب أعينهم السيطرة على هذا الطريق ، وأن الدولة العثمانية المسلمة كانت تهتم بذلك الأمر للسيطرة على هذا الطريق مما أدى إلى تنافس شديد بين الدول فيه ، ولم يتورع دليسيبس مهندس قناة السويس ، بعد أن أكمل فتح القناة من أن يكتب إلى البابا يقول ( الآن أصبح الطريق إلى قلب العالم الإسلامي مفتوحا ولعله بذلك يقصد الأماكن المقدسة في الحجاز).

### البرتغاليون في البحر الأحمر:

اهتم العثمانيون بالبحر الأحمر اهتماما كبيرا لمكانته وأهميته التي ذكرناها وخاصة بعد اكتشاف البخار واستخدامه في المواصلات البحرية ، وتطورت هذه الأهمية عندما أصبحت البرتغال قوة مهيمنة على أجزاء كبيرة من مناطق الملاحة في العالم ، وتمثلت هذه الروح في هنري الملاح أمير البرتغال وغيره من القادة ، مثل القائد البرتغالي البورك الذي كان يعمل بهمة ونشاط للاستيلاء على جميع النقاط الاستراتيجية حتى يمهد للاستيلاء على مكة والمدينة المنورة وبيت المقدس من المسلمين ، وبالرغم من ضخامة هذه الآمال فإنها تدل على مغزى كبير وهو أن قادة البرتغال كانت تحركهم الأفكار الصليبية (2) وانتهى الأمر بمحاولة كل من أسبانيا وفرنسا والبرتغال بالتعاون مع الحبشة لغزو بحري إلى كل من مصوع وسواكن ، على أمل غزو الحجاز والوصول إلى الأماكن الإسلامية المقدسة ، وتذكر بعض المصادر أنه بالفعل قامت البرتغال بحملة

دخلت البحر الأحمر ووصلت إلى ينبع ولكن تحطمت إثر عاصفة عاتية مما ضاعف من اهتمام العثمانيين ، وكان البرتغاليون قد سيطروا على مناطق واسعة في المحيط الهندي ، وهددوا مناطق نفوذ الدولة العثمانية التي تعتبر البحر الأحمر بحيرة إسلامية خاضعة لها وحافضة للمناطق المقدسة في الحجاز. (3)

كذلك ارتبط النشاط في البحر الأحمر بالتطاحن الاستعماري في إفريقيا عامة وفي الساحل والساحل الشرقي بنوع خاص ، وقد كان طبيعيا عندما ظهرت أهمية المناطق المطلة على البحر الأحمر والمحيط الهندي ، أن تسرع البرتغال وغيرها من الدول الاستعمارية المتحفزة ، لتأخذ نصيبها من هذه المواقع الممتازة.

شرح البرتغاليون منذ عام 1502 م بوجهون الضربات القوية لأعمال التجار العرب ، وبالتالي التجارة في البحر الأبيض المتوسط ، واستطاعوا النفوذ إلى البحر الأحمر وأصبحوا خطرا عظيما يهدد الأماكن المقدسة ، وكانت السلطة المملوكية في وضع حرج أمام التهديد البرتغالي ، فطلبوا العون من العثمانيين ، فامدهم السلطان العثماني بايزيد بالسفن والملاحين والأخشاب وغيرها ، ولكن ذلك لم يكن كافيا فحاول البرتغاليون عزل الجزيرة العربية مما دفع الأهالي والأشراف إلى طلب العون مباشرة من العثمانيين ، الذين أخذت شهرتهم في الجهاد تنتسح يوما بعد يوم ، ولاشك أن خروج السلطان سليم الأول المفاجيء لفتح مصر كان يرجع لكل هذه الأسباب السياسية والاقتصادية والدينية ، غير أن حرب دولة مسلمة كان يقتضي تهيئة الحجة الشرعية اللازمة ، ولذلك وصفوا المماليك بأنهم حكام مستبدون عاجزون عن رفع الظلم عن رعاياهم ، كما كان وجود الخطر البرتغالي عاملا آخر ساعدهم على صياغة الحجة الشرعية فطرحوا حجة حماية الحرمين الشريفين والأماكن المقدسة من الخطر الصليبي ، وأنهم الدولة الوحيدة المجاهدة والتي تتصدى لهذا الخطر. (4)

وبذلك يكون العثمانيون قد وضعوا على عاتقهم الواجب المقدس وهو الدفاع عن العالم الإسلامي ، وبالتالي نجحوا في السيطرة على تأمين الوضع في مدة وجيزة أمام المماليك ، ومع فتح مصر تحمل العثمانيون أعباء الدفاع عن الأماكن المقدسة وعلت مكانتهم في العالم الإسلامي (5) ومن ثم وافقت النجاحات التي حققتها القوة العثمانية خلال القرن السادس عشر نجاحات أخرى في البحر الأحمر ، فتضاعفت البحرية العثمانية ، وفي عام 1538م كان الأسطول العثماني يشق طريقه نحو المحيط الهندي ، فبعد أن فتح العثمانيون مصر بذلوا جهودا عظيمة سواء كانت جاءت بهم حماة للأماكن المقدسة أو إعادة الحياة إلى طرق التجارة القديمة ، فحاضوا صراعا مع البرتغاليين الذين وصلوا إلى الهند وسيطروا على طرق التوابل وهددوا أمن الحرمين الشريفين (6) وعلى الرغم من أن حملة الهند التي قام بها السلطان سليمان باشا لم تنته بنجاح ، فإن وجود العثمانيين في تلك المياه قد أزج البرتغاليين كثيرا وحد من عملياتهم الحربية.

وكانت سيطرة العثمانيين على النقاط المهمة في البحر الأحمر لاسيما منذ عام 1540م قد هيأت السبل من جديد لعودة السفن المحملة بالبضائع إلى طرق التجارة القديمة ، وكان العثمانيون عندما سيطروا على سواحل البحر الأحمر قد منعوا البرتغاليين من ممارسة عملية التبشير الديني الذي كان يستهدف الأماكن المقدسة للمسلمين أيضا (7) فضلا عن ممارسة الأعمال التجارية.

**العثمانيون في البحر الاحمر:**

استطاع العثمانيون في أوائل القرن السادس عشر الميلادي وخلال هذا النحو في سنة واحدة 1516 - 1517 دخلت أربعة أقاليم إسلامية مهمة هي الشام ومصر والحجاز ثم أجزاء من اليمن تحت الحكم العثماني ، وزاد عدد رعايا الدولة العثمانية من العرب زيادة كبيرة ، وأصبح البحر الأحمر بحيرة عثمانية ، فمصر والحجاز واليمن تطل على أجزاء طويلة من ساحليه الشرقي والغربي ، وتدعم الطابع الإسلامي العثماني للبحر ، وقد تحققت لهم السيادة الكاملة للبحر الأحمر حين فتح السلطان سليمان القانوني الذي خلف والده سليم الأول كلا من مصوع وسواكن عام 1557 م (8) وأن يطردوا البرتغاليين من البحر الأحمر ، ويبسطوا نفوذهم على ساحله الإفريقي باسم السلطان العثماني ، خليفة المسلمين ، وتمت سيطرتهم على سواكن وعقيق ومصوع وغيرها من الموانئ المهمة ، كما سيطروا على جدة وأقاموا واليا لهم في الحجاز وحاميات عثمانية في هذه الموانئ (9) ومن ثم تمت سيطرتهم على البحر الأحمر وتجارة الشرق وكذلك فإن العثمانيين قد أسسوا في سواكن ومصوع إدارات سياسية خاضعة لهم تحت إشراف حاكم الحجاز ، يساعده حاكم تركي في سواكن وآخر في مصوع مع وجود أحد زعماء المنطقة في كلا الميناءين للمعاونة في أعمال الحكومة . (10) وقد وضعت قوات في المنطقتين ومدن الساحل الآخرى كزبلع والحديدة لتمكين الحاكم العثماني من مباشرة سلطاته ، وتركت المهام الأخرى للحاكم الوطني بموجب التنظيم الصادر من حاكم الحجاز ، وخلاصة ذلك أن سواكن ومصوع كانتا ذات أهمية قصوى للحكم العثماني ، وهما كذلك في خلال الحكم التركي - المصري وبذلك فليس غريبا أن يظل محمد علي ومن بعده إسماعيل باشا يطلبان من السلطان العثماني ضمهما للإدارة المصرية.

وقد حقق الأوربيون رغبتهم بسياسة البرتغاليين وغيرهم كانجلترا وفرنسا وإيطاليا فيما بعد ، وأهدافهم في تطويق العالم الإسلامي وتحويل طريق التجارة عن بلاد المسلمين ، وتسلم زعامة البحار وتدفع الذهب والفضة والمعادن النفيسة إلى أوروبا ، وقال مؤرخ الدولة العثمانية أكمل الدين إحسان أوغلي في حديثه عن المعادن أن هناك معدنين مهمين ، اهتمت بهما الدولة العثمانية ، كما اهتمت بهما دول العالم الأخرى وهما الذهب والفضة وركز في قوله ان مناجم الذهب التي كانت تأتي في المرتبة الثانية في العالم القديم وتغذي أوروبا بذلك المعدن توجد في السودان ، وكان ينقل الذهب المستخدم في أوروبا حتي بداية الكشوف الجغرافية من السودان عن طريق البحر الأبيض المتوسط (من بعد البحر الأحمر) أما الذهب الذي كان مستخدما في الأراضي العثمانية حتى أواخر القرن السادس عشر فقد كان يأتي من مناجم البلقان ومن إذابة العملات الذهبية الأجنبية (11) وعندما التقى النفوذ الأسباني بالنفوذ البرتغالي ، حاولت أسبانيا وفرنسا والبرتغال من أتباع الكنيسة الكاثوليكية الاتصال مع الحبشة الأرثوذكسية للقيام بغزو بحري إلى كل من عصب ومصوع وسواكن على أمل غزو الحجاز وهدم قبر الرسول صلى الله عليه وسلم (12) وأمام التحدي وعجز المماليك عن المواجهة ضم العثمانيون الشام ومصر ، وقد بقيت الدولة العثمانية عزيزة الجانب وهي تروى عن حمى الإسلام فاسدت خدمات جلييلة للإسلام والمسلمين على امتداد تاريخها . (13)

### العثمانيون في ساحل البحر الأحمر الإفريقي:

الواقع أن المسلمين كانوا في هذه البقعة منذ ظهور الإسلام ، فقد أذن الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين

الأوائل بالهجرة إلى أرض الحبشة ، فركبوا البحر حتى وصلوا إليها ، فأكرم النجاشي وفادتهم، وعندما راسل الرسول صلى الله عليه وسلم الملوك والأمراء في العام السادس للهجرة أرسل كتابا إلى نجاشي الحبشة ، وكان العثمانيون يتقصدون هذه السياسة الإسلامية ، وكذلك فإن المسلمين قد فتحوا دهلك عام 84 هـ في عهد عبدالمك بن مروان ، وشواطئ مصوع وبنوا القلاع والحصون وأمنوا الطرق للتجارة فازدهرت البلاد وازدادت هجرة العرب إلى تلك المنطقة وانتشر الإسلام في شرق إفريقيا عن طريق الدعوة والتجارة والمصاهرة ، وكان للخليفة هارون الرشيد اهتمام خاص بساحل إفريقيا الشرقي فدفع الكثير إلى هناك.(14)

والمعروف أن البحر الأحمر كان إحدى الطرق المهمة التي تدفق منها العرب إلى إفريقيا شرقها ووسطها مستقرين هناك من بلي وقيس عيلان وجهينة وأولاد كاهل ، واختلطوا بالبجة في شرق السودان بقو بوب ابن بطوطة .. عنوانا عن سواكن وذكر زيلع ومقديشو في حديثه عن معرض الحياة في تلك الجهات وغيرها من أقاليم شرق إفريقيا ، وكان نتاج ذلك مصاهرتهم فانتشر الإسلام بينهم منذ القرن الأول الهجري ، كما أوت جماعة من الأمويين إلى أرض البجة وأقامت فيها ، فاصطبغت البجة بالصبغة العربية الإسلامية ، وقاموا بدور كبير في نشر الإسلام في هذه المنطقة .(15) وظهر علماء من المسلمين في هذه البقعة من الذين لهم دور طبيعي في مواجهة الغزو البرتغالي ، ومن تابعهم من أهل البلاد ، منهم الشيخ أبو عبدالله الزيلعي ، وجمال الدين عبدالله بن يوسف ، ثم برز الإمام أحمد بن إبراهيم أمير عدل الملقب بالقرين أو الأثول الذي اجتاح مملكة الحبشة بأسرها(935-950 هـ) (1528-1543) بمساعدة الدولة العثمانية ، وأستطاع ان يقتل كروستوفر دي جاما ابن المكتشف المشهور عام 947 هـ 1541 - بوادي الدناكل ، ولكن انتصاراته الباهرة أصيبت بنكسة بعد مقتله ، ولم يعد للإسلام أثر دائم إلا في بعض المدن منها هرر والمناطق الساحلية(16)

كذلك ضم العثمانيون الساحل الاسيوي للبحر الأحمر لأهميته بوجود الحرمين الشريفين وخاصة منطقة الحجاز فأنشأوا المدارس في مكة والمدينة المنورة وجدة، كما أنشأ الأهالي عددا من المدارس كالمدرسة الفخرية عام 1298 هـ / 1880 م ومدرسة دار الفائزين ومدرسة الفلاح في جدة كما شمل الاهتمام العثماني في الحجاز النواحي العمرانية والفكرية، واهتموا بالنواحي الصحية بعمارة المساجد وخاصة المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف ، فظهرت العمارة المجيدية كمثال للاهتمام العثماني بالمسجد النبوي الشريف والمعروف أن نفوذ العثمانيين قد امتد إلى اليمن ، فقد كان السلطان سليمان القانوني قد ثبت السلطة العثمانية فيها عام 945 هـ / 1538 م وعين عليها واليا عام 1540 / 1541 م ، إلا أن الأئمة الزيديين كانوا في شبه ثورة دائمة ضد العثمانيين ، حتى اضطر العثمانيون للخروج من اليمن عام 1045 هـ 1635 م / ( 17 ) ولكن رغم الاهتمام العثماني بساحلي البحر الأحمر إلا أن الإمدادات البرتغالية ظلت مستمرقنصارى وخاصة في مواجهة المد الإسلامي ، فاستشهد الإمام أحمد القرن عام 949 هـ 1543 - متأثرا بجراح أصيب بها ، واحتل البرتغاليون بعض سواحل البحر الأحمر الغربية ( 18 ) ، ولكن تمكن الاضطول العثماني من هزيمة البرتغاليين عام 962 هـ 1554 - م بقيادة سنان باشا ، فاستولى العثمانيون على مصوع وسواكن وباقي سواحل البحر الأحمر وطردوا البرتغاليين من هناك ، وكان العثمانيون قد رأوا في جهاد أحمد القرن ونقل الأحداث الإسلامية في سواحل البحر

الإفريقية تاريخاً وتراثاً لهم يحافظون عليه ويتطلعون إلى صيانتها ، واستمرت الدولة العثمانية تسيطر على هذه المنطقة حتى عام 1263 هـ / 1846 م ، حين آلت إلى مصر في عهد محمد علي باشا عندما طلبها من السلطان العثماني نظير مكافأته في إخماد حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الحجاز بقيادة إبراهيم باشا ابن محمد علي فعينه السلطان العثماني محمود الثاني على باشوية جده في يونيو 1820 م أوائل شوال 1235 هـ ولما كانت هذه الباشوية تشمل أيضاً أقاليم سواكن ومصوع والحبشة ، فقد أصبح إبراهيم باشا يلقب بمتصرف جدة والحبش أو والي إيالة الحبش ومتصرف جدة.

وعموماً فإن منطقة الساحل سواكن ومصوع وزيلغ وغيرها كانت تابعة أصلاً للحاكم العثماني عن ولاية الحبش التي أسسها القائد العثماني ازدمير باشا في نحو عام 1550 م ( 19 ) وقد تدهورت هذه الولاية ثم اضيفت لوالي الحجاز الذي كان يتبع أصلاً للدولة العثمانية ، ولكن العثمانيون لم يهتموا بسواكن وبأحوالها التجارية والعمرانية ، بل جعلوها هي ومصوع وزيلغ قواعد حربية تظل خادمة للدولة العثمانية تستغل موانئها لراحة جيوشها الذاهبة للقتال أو العائدة من الميدان دون أن تستفيد هذه البلاد من حكمهم. ( 20 )

وقد وضعت السلطات العثمانية حاكماً عثمانياً على مصوع وآخر على سواكن ، على أن يكونا تحت إشراف والي جدة ( حاكم الحجاز ) واستعانوا بأحد الزعماء الوطنيين وهو نائب اركيكو أو ( حركيكو ) للأعانة بأعمال الحكومة في مصوع وآخر مثله في سواكن ، ولاسيما في جباية الضرائب من القبائل المنتشرة على سواحل البحر الأحمر الغربية ، وقرية حركيكو تبعد عن جزيرة مصوع بحوالي خمسة أميال في الجهة الجنوبية الغربية ، وهي تعتبر من أهمل القرى المجاورة لمصوع فضلاً عن كونها أكبر قرية في هذه المنطقة ، فقد كانت مقر النواب الذين كانوا يتولون صد الغزوات التي يشنها الأقباش على مصوع والمنطقة الساحلية المواجهة لها. ( 21 )

والواقع أن أسرة النواب التي استعان بها العثمانيون للمساعدة في إدارة مصوع إقليم سمهر كانت قد وفدت من إقليم تجري ، ولكنها اعتنقت الإسلام وانعزلت تدريجياً بمنطقة مصوع الساحلية عن النفوذ الحبشي ، وتوطدت سلطة هذه الأسرة تدريجياً في منطقة سمهر ، وتولى النواب شياخة قبيلة البلاؤ التي كانت تنزل في هذه المنطقة ، وعندما وفدت القوات العثمانية إلى مصوع ، لم تظهر البلاؤ أي ميل لمحاربتهم ، بل تركوا لهم الجزيرة واكتفوا بالإقليم الساحلي. ( 22 )

وعندما تطورت المشاكل بين النواب والعثمانيين وعزل النائب محمد وجاء النائب حسن وهما من مشايخ النواب ، لم يكن الوضع أحسن مما كان عليه ، فقد استمر النزاع بين الفرعين ولكنهم رأوا أن من الحكمة الاتحاد فيما بينهما ضد العثمانيين عدوهما المشترك وأعلنوا استقلال حركيكو ، ولكن هذا الاستقلال لم يدم طويلاً فسرعان ما أغرى حاكم مصوع النائب حسن وشيوخ حركيكو على المجيء إليه في جزيرة مصوع حيث كبلهم بالأغلال الحديدية ، وفي 16 يونيو 1847 م أنزل باشا مصوع قواته على الساحل وأمرهم بتخريب منازل النائب حسن وعظماء المدينة ، وبذلك قضى نهائياً على استقلال نواب حركيكو ، ولم يعد هؤلاء النواب يتمتعون منذ هذا الوقت بنفوذ كبير على قبائل الساحل ( 23 ) ورغم ذلك فإنه لم يكن للعثمانيين على ساحل البحر الأحمر الغربي باستثناء منطقتي سواكن ومصوع سوى نفوذ ضئيل ، إلا أنهم ظلوا رغم ذلك حتى أواخر القرن التاسع عشر

متمسكين بحقوق السيادة على ساحل البحر الأحمر الإفريقي ، ولم يتركوا فرصة إلا انتهزوها لإعلان تبعية الساحل كله لهم.(24)

وكان نفوذ حاكم مصوع الذي عينه والي جدة قائمًا عليها يدير شئونها ويشرف على الأجزاء التابعة لها ، وقد امتد نفوذه حتى باب المندب في المنطقة التي يسكنها الدناكل ، ولضمان تبعية أولئك السكان للسلطان العثماني أقام في مناطقهم نقاطًا عسكرية ، ولكنها فيما يبدو كانت رمزية ولم تكن ذات هبة حتى لاحظوا توا باشا محافظ مصوع من قبل السلطان العثماني كثرة مرور بعض الأوربيين على الساحل واتصالهم بالسكان وخوفاً من محاولتهم تضليل هؤلاء السكان أو شراء أي جزء من مناطقهم زيدت أعداد العساكر في كل نقطة ، ورفع العلم العثماني عليها للدلالة على سيادة الدولة العثمانية.(25)

ولم يكن للسلطان العثماني نفوذ على الداخل والإشراف على القبائل خارج مدينة مصوع ، فقد كلف حاكم حركيكو بالإشراف على القبائل بين ساحل البحر الأحمر وهضاب تيجري ، كإقليم الحماسين والشوهو والحباب لتحصيل الأموال المقررة عليها وصد غزوات الأبحاش عنها ، لأن العثمانيين اكتفوا بوضع اليد على تلك المناطق ولم يتعمقوا في الداخل ، ولم يصلوا هضبة الحبشة ولكن فقط متمسكين بحقوق السيادة على ساحل البحر الأحمر الغربي المتمثلة في رفع العلم العثماني كمظهر لهذه السيادة ، ولتأمين موقفهم حاولوا تذليل خلافاتهم مع الحبشة فأعطوا رأس تيجري نصف الضرائب التي تحصل من ميناء مصوع من غير أن تكون لهم شراكة في الميناء أو أحقية في السيادة ، وظل العثمانيون متمسكين بالسيطرة على سواحل البحر الأحمر باعتبار أنه شريان مهم للتجارة العالمية في ذلك الوقت ولجعله بحيرة عثمانية.(26)

وكان العثمانيون منذ أن احتلوا مصر قد وجدوا أن مدينة الإسكندرية رغم وقوعها على البحر الأبيض المتوسط فهي أيضاً تعتبر مركزاً مهماً لتجارة البحر الأحمر وحلقة صلة بين تجارة الصين والهند وسواحل البحر الأحمر وتجارة أوروبا ، ومن هنا تبعت هذه الأهمية ضرورة التحكم في تجارة البحر الأحمر (27) ، وخاصة بعد أن اكتمل الخط الحديدي بين الإسكندرية والسويس عام 1857م فساعد في تنشيط حركة التجارة عبر البحر الأحمر إلى الأسواق الأوروبية وأعطى هذا النشاط سواكن ومصوع خاصية وربطهما بالعالم الخارجي وبالتالي فإن السيطرة الاقتصادية ، والمحافظ على الحرمين الشريفين كانت محور التحركات السياسية والنقاط العسكرية التي سعى العثمانيون لإقامتها في موانئ البحر الأحمر.

### النفوذ التركي – المصري:

ومنذ القرن التاسع عشر زاد اهتمام الدول الأوروبية بهذه الموانئ ، والساحل على وجه الخصوص ، وأخذت تعد الدراسات عن السكان والطرق الساحلية والداخلية ، وقامت مصر بجمع المعلومات لعدد دراسات عن هذه المنطقة ، فقسمتها من السويس إلى راس حاقون عند باب المندب إلى ( اعاجم ودناكل وصومال) أما الأعاجم فهم سكان الساحل ما بين القصير ومصوع وهي المنطقة الواقعة في حدود السودان وسميت (برعجم) وهم البجة والدناكل ، ثم المنطقة بين مصوع وزيلغ والصومال ، وهم سكان الساحل من زيلغ إلى حدود زنجبار ، ولكل جنس من هؤلاء لغة خاصة به ويعتقد أن معرفة اللغة العربية بينهم قليلة ولا يعرفون التعاليم الدينية

الصحيحة . (28) وكانت أول خطوة ايجابية في هذه السياسة بعد تطاحن شديد بين القوى المختلفة هي طلب مصر ضم ميناءي سواكن ومصوع من الدولة العثمانية إلى الإدارة المصرية (29) ورغم ذلك فإن الدول الأوروبية وخاصة إنجلترا وفرنسا وإيطاليا تعمل بنشاط وبمختلف الطرق لتضع أقدامها في المناطق المهمة في البحر الأحمر ، فتارة تتصل بشيوخ القبائل ونارة تشجع على بث الفتن والدسائس بين السكان لتوجد من الثغرات ما تتدخل به في شئون هذه المناطق وخاصة عندما استولت إنجلترا على مدينة عدن ، وقد ظهرت الكثير من البلاغات في هذا الشأن ( 30) ولذلك أرسلت الإدارة سوارى وابور الصاعقة للاتصال بمشايخ وعمدو أهالي جهات بربر لوجراء الصلح بين القبائل المتنافرة والمحافظة على رف العلم العثماني على الجهات المختلفة على هذا الساحل. (31)

وكانت إنجلترا تعارض دائما اعتداءات إيطاليا في البحر الأحمر ، وكانت تتوغل في الساحل من ناحية عصب رغما عن احتجاجات مصر المتكررة باعتبار أنها راعية لحقوق السلطان العثماني، وقالت إنجلترا إن هذا التوسع لو كان تجاريا خالصاً لنظرت إليه بعين العطف ، ولكنها تريد أن تتأكد من خلوه من أي غرض سياسي لأن البحر الأحمر وتر حساس (32) وقد بدأ الطليان باحتلال رهيفة في جنوب خليج عصب ، واستمرت اجراءات الطليان العدائية في احتلال المناطق المختلفة فحولت عصب إلى مستعمرة ايطالية في يونيو 1882 م وفي يناير 1885م احتل الطليان بيلول في شمال خليج عصب ، وفي شهر ديسمبر 1885 م دخل الطليان مصوع وطردوا الحامية المصرية واستولوا على المستودعات ومخازن الذخيرة وجميع أملاك الحكومة المصرية في الخزينة (33).

واحتجت مصر بأنها تدفع للسلطان العثماني نظير التنازل عن مصوع مبلغ 17000 جنيه جزية سنوية ، وإنجلترا من جهتها كانت تحتل ميناء سواكن منذ 1884 م ، وسعت لتعيين حكام انجليز لساحل البحر الاحمر ، في حين كانت ترى أن سواكن من النقاط التي يمكن منها السيطرة على السودان ، بدليل أن شركة انجليزية تجارية على غرار شركة الهند الشرقية كانت تعمل وقتذاك على الحصول من الحكومة على امتيازات تخول لها الحق في انشاء مركز لها في سواكن (34) للتوغل منها في السودان من ناحية تجارية ، ولكن الحكومة المصرية اعترضت على ذلك.

واحتجت مصر على أنها ترى أن السودان من ناحية الواقع جزء من الأراضي العثمانية وأن الخديوي يدفع جزية إلى الباب العالي من أجل السودان ، ولذا فإنه من الظلم البين ان تستمر الحكومة المصرية في دفع جزية من أجل مصوع وهذا الظلم يتضاعف إذا وضع الطليان أقدامهم في بلد تأمل الحكومة المصرية في أن تستعيده في يوم من الأيام.

ورغم ذلك فإن الدولة العثمانية قد وجهت اللوم لمصر على سكوتها عن مشكلة عصب طوال هذه المدة ، وسكوتها على تمكين الإيطاليين في منطقة عصب مع ما في ذلك من مخالفة لقانون التملك ، وكانت مصر تفكر في اختيار المحافظة على المنطقة المذكورة من قبل الدولة العلية.

كما كان مع الاهتمام بالا يسمح للإيطاليين بتوسع حدود الأراضي التي تحت أيديهم أو تعقد اتفاقا بين الدول

الثلاث على الا يتخذ الإيطاليون المنطقة المذكورة قاعدة حربية ولايتوسعوا فيها ، وقد نفت مصر عن نفسها التصير والسكوت عن مواجهة الأمر حيث قدمت الاحتجاج على سلوكهم هذا منذ اللحظة الاولى.(35) وقد تحدثت الوثائق التركية – المصرية كثيرا عن محاولات الأجانب لشراء أراض من مشايخ السواحل دون الاهتمام بمكانة الحكومة وحقوقها في هذه الجهات ، وضربت أمثلة بالإيطاليين وشراء الاراضي في عصب ومايين بيلول ورهيفة(36)

والواقع فإن هذه الدول وعلى أسها إيطاليا عملت على أن يكون لها نفوذ في سواحل البحر الاحمر ، وقام مبشرها القس جوزيف سباتينو وطلب أن يكون لإيطاليا ميناء على ساحل البحر الاحمر ، واستطاع أن يتصل فيما بعد بشيخ رهيفة وغيره من مشايخ القبائل وزعماء الدناقل وحصل على استئجار جهات واسعة من خليج عصب باسم شركة روباتينو ورفع عليها العلم الايطالي ، فاحتج رضا باشا محافظ سواحل البحر الأحمر ، وهدأت رغبة ايطاليا بعض الشيء حتى عام 1300 هـ 1882 - م ولكن بتشجيع بريطانيا اشترت ايطاليا ميناء عصب من الشركة الإيطالية مقابل 416 ر 000 ليرتو أصبحت ركيزة للتوسع في الساحل الإفريقي ، ثم احتلت بيلول عام 1303 هـ ، 1885 م واجبرت وكيل محافظة مصوع المصري على مغادرتها ، وتوغلت القوات الايطالية فيما يلي مصوع غربا ، ومدت سلطانها حتى وصلت مائة ميل جنوب شرق سواكن ، وجنوبا حتى أصبحت المناطق التي احتلتها متاخمة لما احتله الفرنسيون في مقابلة باب المنذب (37) وقد سبق هذه المحاولات مساع مختلفة ، فقد وردت إفادة للمسؤولين في مصوع من الشيخ برهان شيخ رهيفة أن سنيوكا قد وصل من عدن ونزل في عصب يحمل جماعة من الفرنسيين انتشر في بلدة افكاله ودفعوا عربون 250 ريال بغرض الحصول على نفوذ في المنطقة وعصب حينذاك تحت نظر عبدالله بن شحيم ، وقد أفاد شيخ رهيفة بانه ارسل ضابطين باسم حكمدارية السودان ، وتوقفت المعلومات إلى هنا ، ولكن لأن التدخل مستمر من قبل الأوربيين ذكر محافظ مصوع أنه وصلت من قبل افادة بأن خمسا من الايطاليين جاءوا وقالوا إنهم يحملون تصريحاً من الخديوي للسياحة ولذا أوقف محافظ مصوع التحري في هذا الأمر ولكنه ذكر أن معلومات بلغته تفيد أن بلدة عصب قد بيعت إلى الأفرنج وقام بذلك المدعو محمد بريدي الناضور وجماعته ، ولكن عندما تحرى محافظ مصوع من الناضور هذا ذكر أنه كان معه ثلاثة من الاوربيين لم يذكر جنسيتهم بخلاف الايطاليين الخمس ، وقالوا إنهم متوجهون إلى عصب وعندما جاء شيخ البلد وسألهم ، سلموه مبلغ 7 آلاف ريال وطمأنوه بأنه سيصله ألف ريال حيث يصير المبلغ ثماني آلاف ريال ثمنا لشراء بلدة عصب ، وقد حضر هذه المساومة ولد لشيخ بيلول ، ولكن هذا الموقف لم يكن مقبولا باعتبار أن هذه أرض السلطان العثماني ولا يحق لغيره التنازل عنها ، وللدلالة على ذلك نصب شيخ بيلول علما عثمانيا على الساحل مؤكدا أن الأرض عثمانية (38) ويبدو أنهم كانوا ايطاليين لأن الخبر يشير إلى أن بعض ( القومبانية التليان ) اشترتوا عصب بمبلغ 8 آلاف ريال ، وتستمر الوثيقة في شرح موقف المحافظ وتداعيات هذا الأمر .

وعندما علم رضا باشا محافظ سواحل البحر الأحمر أثناء رحلته بهذه السواحل ، بأن الشركة الايطالية ( روباتينو ) قد عقدت اتفاقا بينها وبين شيخ قبيلة رهيفة وأنها استأجرت بموجبه جهات واسعة على شاطئ

البحر قرب عصب ليعيل يجار الجزر والسواحل الغربية من خليج عصب.(39)  
والواقع فإن تدخل الأوربيين كان يتم دائما بأساليب ناعمة وبموافقة بعض الأهالي ورضاهم فيحتدم الخلاف بين  
السلطان وهؤلاء الأوربيين وتدعي دولهم أنهم إما من التجار أو السواح حتى تم لهم استقطاع أجزاء من المنطقة  
وتحدثت الوثائق كثيرا عن محاولات الأجانب لشراء اراض من مشايخ السواحل دون الاهتمام بمكانة الحكومة  
وحقوقها ، وضربت أمثلة بالايطاليين وشراء الاراضي في عصب ما بين بيلول ورهيطه.

### محافظة سواحل البحر الأحمر:

ونتيجة للأساليب المختلفة التي ظلت تتخذها الدول الأوربية وخاصة عندما استولت إنجلترا على عدن ، من  
ذلك ما كتبه معاون محافظة مصوع عن المشاكل التي أوجدها الانجليز في بريرة مع بعض الأفراد عن القبائل  
ليعملوا على إنزال علم الدولة العثمانية ورفع العلم الانجليزي مكانه ، ومن ثم انشئت محافظة خاصة بإقليم البحر  
الأحمر سميت باسم محافظة سواحل البحر الأحمر ، مهمتها مراقبة هذا الساحل ، ومراقبة القبائل المختلفة  
وبيان حدودها وتسجيل أسمائها ومشايخها بدفاتر المحافظة ( 40) وبذلك أرسلت الإدارة وفدا للاتصال بمشايخ  
وعمدو أهالي جهات بربرة لجراء الصلح بين القبائل المتناحرة والمحافظة على رفع العلم العثماني على هذه  
الجهات ( 41) ثم تمكنت حملة مصرية بقيادة محمدرؤف باشا من فتح سلطنة هرر وذلك في 12 رمضان  
1292هـ 11 أكتوبر 1875 م ومن ذلك الحين تكونت حكمارية من هرر وزيلع وبريرة عرفت باسم حكمارية  
هرر وملحقاتها ، وتعتبر هرر من أشهر الأقاليم التي ضمتها الإدارة المصرية وقد وصفت مدينة هرر بأنها  
عاصمة الإسلام ومدينة العلم والمنابر والمساجد ومركز الإشعاع لشعوب القرن الإفريقي.

كما وصفت بأنها مدينة في سهل مخصب تطالعه من كل جانب تلال مخضرة تعلوها خمائل البن والقات ،  
وسكانها حينذاك ثلاثون الفا ، مسلمون على مذهب الشافعي وكان حاكمها محمد عبدالشكور يشدد على سكانها  
، ويحرم عليهم بعض المأكولات التهيروى أنها ليست من شأنهم وكان يحتكر تجارة العاج وريش النعام والبن  
وغيره من المحصولات، وذكرت بعض المصادر أنهم يأتون بكثير من البدع والمعروف أن العثمانيين عندما  
احتلوا في القرن السادس عشر جميع السواحل ، انتقلت العاصمة من زيلع إلى هرر في عام: 1521 : ثم أخذ  
العثمانيون يمدون إخوانهم في الدين بالمدافع والأسلحة في الصراع بين عدل والحبشة وكان البرتغاليون الذين  
مازال نفوذهم ضاربا في الهند يساعدون الأحباش ، ولكن تمكن سلطان هرر من الاستيلاء على معظم الحبشة ،  
ورغم ذلك فإنه هزم في النهاية( 42)

وقد شملت محافظة سواحل البحر الأحمر الأقاليم الممتدة من سواكن حتى هرر وباب المنذب ، وماكادت تفتتح  
قناة السويس في عام 1869 م وتظهر للعالم أهمية البحر الأحمر حتى كان اسماعيل باشا قد مد نفوذ مصر  
على سواحل البحر الأحمر الإفريقية ، ولكنها في واقع الأمر تابعة للسلطان العثماني من ناحية السيادة.

وقد بدأت المشاكل تطراً على هذا الساحل ، خاصة المشاكل بين إنجلترا ومصر وظهرت المشاكل بين قبائل  
بلهار وبريرة على خليج عدن ( 43) وخاصة عندما تمكن محمد رؤف باشا من رفع العلم المصري فوق قصر  
أمير هرر محمد عبدالشكور وخلعت مصر عليه الخلع الفاخرة ، غير أن القبائل لم تقبل بهذا الإجراء أغلقت

الطريق بين زيلعو هررو أصبح الجيش المصري كالمحصور ، ثم أرسل الخديوي حملة أخرى لمواجهة الموقف وتشيتت القبائل ، واتفق أمير الحملة مع أمير زيلع لتنظيم أحوالها ونقل رؤوف إلى السودان وبعن مكانه محافظا على تلك الجهات ( 44) ورغم أن مشروع قناة السويس مشروع مهم للبحر الأحمر إلا أن إنجلترا نافست فرنسا في هذا المكان وعارضت المشروع في البداية ، فاستمر رفض السلطان له نحو عشر سنوات حتى جاء اسماعيل باشا وكان العمل مستمرا رغم معارضة إنجلترا ، ولكن مصر تمكنت بعد ذلك من بسط يدها والسيطرة على الملاحة في البحر الأحمر واضطرت إلى أن تمد نفوذها إلى هذه الموانئ المختلفة على الساحل الإفريقي التي هي في الأصل تابعة رسميا للدولة العثمانية وبعضها تحت النفوذ المصري ، ولذلك عملت مصر على مد نفوذها للموانئ التي مازالت عند المشايخ والأمراء المحليين .(45)

ولكن الخديوي في خطابه إلى وزير الداخلية في مصر قرر أنه بناء على فتح مدينة هرر وملحقاتها فقد قرر جعل منطقة هرر حكمدارية تسمى حكمدارية هرر وملحقاتها وتكون جهات زيلع وبربرة تابعة لها ، وتعيين محمد رؤوف باشا حكمدارا عموميا عليها ومنحه رتبة فريق ، وأن يكون ابوبكر شحيم الذي كان وكيل محافظة زيلع محافظا على هذه المحافظة تحت إدارة رؤوف باشا ( 46) وقد أعلن ذلك إلى كافة الجهات المرتبطة بالإدارة التركية - المصرية في السودان ، وفصلت مناطق هرر وبربرة وزيلع لأنها أصبحت حكمدارية قائمة بذاتها ، وسبب ذلك كما برره المسئولون يرجع إلى ضعف ظروف السودان المالية وأوضح ذلك في برقيته ولكن هذا القرار لم ينفذ لأنه رجع وذكر أن المجلس الخصوصي رأى أن بربرة وزيلع تحت إدارة حكمدارية السودان . ( 47 ) .

ثم أجري تعديل آخر حيث فصلت محافظات سواكن ومصوع وبربرة وغيرها من الأقاليم السودانية المطلة على البحر الأحمر ومديرية التاكة عن حكمدارية السودان وأعيد تشكيل محافظة سواحل البحر الأحمر وعين أحمد ممتاز باشا مديرا لعموم شرق السودان ومحافظا على سواحل البحر الأحمر ( 48) ثم كتب تقريرا عن مصوع بالذات وقدر مساحتها بخمسين فدانا وسكانها ثلاثة آلاف نسمة وشرح حالتها العمرانية وبها صهاريج لحفظ المياه وسكانها من عرب الحباب والبنو عامر ، وبقرية جزيرة دهلك كما توجد ميناء عقيق بين سواكن ومصوع ، وفي الجنوب الغربي قرية حركيكو إلى آخر الدناكل ونظارة سمهر من حركيكو إلى عقيق وتبعها موانئ أخرى مثل ميناء عايدة ، وهو ميناء صغير وسبق أن اشترته شركة فرنسية بالاشتراك مع تاجر فرنسي قبل ضم مصوع إلى الإدارة المصرية ( 49) وخشية أن تدعي الشركة الفرنسية تبعية هذه الموانئ إلى فرنسا ، وميناء زولا وموانئ أخرى على الساحل حتى الأقاليم الجنوبية.

ومن الموانئ المهمة ميناء بربرة ، وقد لاحظت الإدارة التركية - المصرية ان باخرة ايطالية تابعة لشركة بواخر ايطالية هي شركة روباتينو ذهبت إلى ذلك المكان داخل حدود الإدارة التركية المصرية لبحث مكان يكون ميناء لهم ، ولكن المشايخ والموظفين في ذلك المكان اعترضوا طريقهم ، كما وصف ممتاز باشا مدينة سواكن فذكر أنها جزيرة تقع على خط عرض 19 ° ، وأن ميناءها متسع لكنه ليس عميقا وهي عامرة وتصلح بها الزراعة ، وتبلغ مساحة الاراضي المزروعة أحيانا 000 ر 450 فدان ، وتعتمد الزراعة على مياه السيول وعلى خور بركة

، وكثيرا ما تهاجمها المياه ، وشمال سواكن ملاحه درم ورواية ، والملح المستخرج يرسل إلى جدة والهند ، ولعل وصفه لمصوع وسواكن جاء باعتبار أنهما الميناء العامر ان الرئيسيان في المنطقة ، وأنه يريد أن يمهد لاستمرار فترته فيهما وهو الذي حدث بعد ذلك .

وذهب في تقريره إلى أنه لاحظ اهتمام الإدارة ببناء المساجد والكنائس بهذه الجهات التي خضعت لها سواحل البحر الأحمر ، ووجهت جهودها للقضاء على الوثنية والبدع والعادات المستهجنة التي كانت منتشرة ، ولذلك أرسل عدداً من رجال الدين وشيوخ الأزهر الشريف ليوقفوا الأهالي على التعاليم الصحيحة ، وعلى ماتقضي به الشريعة .

وقد جاءت ملاحظات المحافظ أيضا إشارة للعمران الذي تحقق في مدينة سواكن ، وقد أخذ الكثير من الأحباش يتجولون في أنحائها ، وحيث إنهم أقباط كما تقول الوثيقة رأى من المناسب أن تشاد لهم كنيسة أسوة بمساجد المسلمين في سواكن.( 50 )

وعموما فإنه نتيجة لوجود محافظة خاصة بسواحل البحر الأحمر فقد استقرت الأحوال للسيطرة التركية – المصرية ، وتمكنت من إنشاء إدارات متمكنة من السيطرة على هذه المناطق ، وتقديم بعض الخدمات والإنشاءات العمرانية وتطوير الحياة بصفة خاصة في ربوعها ، وتحقق نتيجة لذلك أن استطاعت مصر من اقناع السلطان العثماني من ضم سواكن ومصوع إلى الإدارة المصرية ، أو أصبحت تابعة مباشرة لإدارة مصر مع المحافظة على استمرار دفع الإتاوات السنوية للباب العالي .

الهوامش:

- 1- شوقي عطا الله الجمل ، سياسة مصر في البحر الأحمر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ص5-6
- 2- جميل عبدالله المصري ، حاضر العالم الإسلامي وقضايا المعاصرة ، ج 1 ، ص74
- 3- شوقي عطا الله الجمل ، سياسة مصر في البحر الأحمر ، مصدر سابق ، ص2006
- 4- أكمل الدين إحسان أوغلي ، الدولة العثمانية ، تاريخ وحضارة ، ترجمة صالح سعداوي ، ج 1 ، ص32-33
- 5- أكمل الدين أحسان أوغلي ، المصدر السابق ، ج 1 ص33-34
- 6- نفس المصدر ، ج 1 ، ص32
- 7- نفس المصدر ، ج 1 ، ص43
- 8- عبدالعزيز محمد الشناوي ، الدولة العثمانية دولة إسلامية ممتددة عليها ، ج 1 ، ص 20 ، القاهرة 1980م
- 9- السيد محمد رجب حراز ، التوسع الإيطالي في شرق إفريقيا وتأسيس مستعمراتى ارتريا والصومال ، ص 62 ، القاهرة.
- 10- محمد فؤاد شكري ، مصر والسيادة على السودان ، ص 23 للقاهرة
- 11- اكمل الدين أحسان اوغلي ، مصدر سابق ج 1 ص661
- 12- جميل عبدالله المصري ، مصدر سابق ، ج 1 ص99
- 13- نفس المصدر.
- 14- نفس المصدر ، ج 2 ، ص409
- 15- حسن احمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ص 20 ، انظر رحلة ابن بطوطة ص 245 ، دار بيروت للطباعة والنشر ، وانظر يوسف فضل حسن ، انتشار الإسلام في إفريقيا ص 11-12 ، دار جامعة الخرطوم للنشر .
- 16- جميل بين عبدالله المصري ، مصدر سابق ج 2 ص47
- 17- أكمل الدين أحسان أوغلي ، مصدر سابق ، ج 2 ص379
- 18- جميل بن عبدالله المصري ، مصدر سابق ، ج 2 ص410
- 19- Hill , R, Egypt in The Sudan , P.74 Oxford
- 20- محمد صالح ضرار ، تاريخ السودان ، البحر الأحمر ، إقليم البجة ، ص 110 بيروت1962
- 21- السيد محمد رجب حراز ، مصدر سابق ، ص62
- 22- السيد محمد رجب حراز ، مصدر سابق ، ص64
- 23- نفس المصدر ، ص67

- 24- محمد فؤاد شكري ، مصدر سابق ، ص 23
- 25- عوض عبدالهادي العطا ، معالم تاريخ الحكم التركي – المصري في إقليم التاكة ، سواكن ومصوع ( 1885 – 1840 رسالة دكتوراه مخطوطة ص 41
- 26- نفس المصدر
- 27- Hill , R. Op,cit , P,. 100
- 28- م و خ زنجبار ، محفظة 611 القلعة 19 صفر 1298 هـ 21 يناير 1891 تقرير محمد علي رضا
- 29- شوقي عطا الله الجمل ، سياسة مصر في البحر الأحمر ، مصدر سابق ، ص 6
- 30- نفس المصدر ، ص 7
- 31- نفس المصدر ، ص 8
- 32- محمد صبري ، الإمبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر ، ص 164
- 33- نفس المصدر ، ص 166
- 34- نفس المصدر ، ص 167
- 35- شوقي عطا الله الجمل ، الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الاحمر وثيقة رقم 78 بتاريخ 15 صفر 1299 هـ مارس 1882 م
- 36- نفس المصدر ، وثيقة عن حكمدارية السودان دفتر 836 وارد معية ص – 34 ص 5
- 37- السيد محمد رجب حراز ، مصدر سابق ، ص 66
- 38- المصدر السابق نفسه ، ص 66
- 39- شوقي الجمل ، الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الاحمر ، وثيقة رقم 77 من رضا باشا إلى مسيو سابيتو ممثل شركة روباتينو الإيطالية ، عصب في 26 ديسمبر 1880 ، راجع نفس المصدر ص 181
- 40- شوقي عطا الله الجمل ، سياسة مصر في البحر الأحمر ، المصدر السابق ، ص 7
- 41- نفس المصدر ، ص 8
- 42- محمد صبري ، مصدر سابق ، ص 41- 42
- 43- المصدر السابق ، ص 40
- 44- اسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار في دول البحار ، ج 2 ص 324 – 323
- 45- شوقي عطا الله الجمل ، سياسة مصر في البحر الأحمر ، مصدر سابق ص 36- 35
- 46- محافظ أبحاث السودان 1292 هـ القلعة دفتر 11 معية صادر تلغرافات نمرة – 34 ص 3 تاريخ 12شوال 1292 هـ.
- 47- محافظ أبحاث السودان 1296 هـ القلعة محفظة 55 معية تركي وثيقة 271 نمرة فبراير 1879 م

صورة تلغراف وارد لمجلس النظار من سعادة غردون باشا.

48- شوقي عطا الله الجمل ، سياسة مصر في البحر الأحمر ، مصدر سابق ، ص2

49- نفس المصدر ، ص 72-73 .

50- راجع الوثيقة بسجل 583 القلعة ص 22 نمرة 20 في 28 شوال 1286 هـ.